

غزليات صفى الدين الحلبي من خلال صور الغزل في تراث الشعر العزبي

ممدوح السكاف

مخطط البحث :

١ - مقدمة (علاقة الرجل بالمرأة
وكلفه بها) .

٢ - تعريف الغزل ومرادفاته .

٣ - أنواع الغزل في الشعر العربي :

آ - غزل صناعي .

ب - غزل عاطفي .

ج - غزل ماجن .

٤ - مخاطب الغزل في الشعر
العربي :

آ - المرأة .

ب - الغلمان .

ج - الغلاميات .

د - الذات الالهية .

٥ - صفى الدين الحلبي : حياته
وعصره .

٦ - أنواع الغزل عند صفى الدين
الحلبي ومُخاطبه :

آ - غزل صناعي .

ب - غزل عاطفي .

ج - غزل ماجن .

٧ - طرائق الغزل عند صفى الدين
الحلبي :

آ - مناجاة الطيف .

ب - أسلوب الحكيم .

ج - استعادة الذكريات .

٨ - بناء القصيدة الغزلية عند الحلبي :

آ - من ناحية المضمون .

ب - من ناحية الشكل .

٩ - خاتمة ، وحكم .

منذ خلق الله الكون فابدىع ، وذراً البشرية فتفنن ، شغف الرجل بالمرأة شغفاً
مزدوجاً ، معنوياً ومادياً ، أو روحياً وحسياً ، شغف برقة عواطفها ، وسمو مشاعرها
وذكاء قلبها ، وصفاء أحاسيسها ، ولذة مناجاتها ، وشغف بجمال وجهها ونعومة
جسدها ودقة مفاتها ، وشهوة أنوثتها ، وغنج حركاتها ، فكان أن سعى وراءها ليجد عندها
الراحة والهناء ، وليقطف منها المتعة والنشوة ، وليقر إليها ويسكن ، ولتستقيم حياته
وتتسق .

ويحدثنا التاريخ حديثاً مستفيضاً عن دور المرأة في الأمم والجماعات والأفراد
فكثيراً ما كانت سبباً في المنازعات والخصومات ، وكثيراً ما كانت سبباً في المهادنة والصلح ،
فهي ترفع وتضع ، وتبني وتهدم ، وتستطيع أن تنفذ مآربها ، وتصل إلى أهدافها بسعة
حيلتها ، وسرعة خاطرها ، ومضاء سلاحها ، لذا نجد لها مادة أولية للأدب والفنون في
جميع الحضارات ، وعلى ممر الزمان ، يستلهمها الشاعر في شعره ، والرسام في
ألوانه والموسيقي في أنغامه ، فهي منجم لا ينفد ، وبحر عميق بلا قاع ، ونهر واسع
دون ضفاف .

★ ★ ★

وإذا كان للمرأة كل هذا الشأن ، وجميع هذه الصفات ، فلا بد للأدب العربي أن
يهتم بها اهتماماً كبيراً ، ويفرد لها صدرأفسيحاً في كتبه ومجلداته ، وفي آثار شعرائه
وكتابه ، ولقد قام الشاعر الجاهلي خير قيام بهذا العبء ، فغنى المرأة في قصائده ، وحديثها
حديث الصب ، وبسط أمامها عواطفه ، ورجاها بحرارة وتوسل إليها بغصة ، واستفاض
في الوقوف على الأطلال ومخاطبة الديار ، ثم تابعه الشاعر الأموي ، فسار على نهجه ،
فبكى واستبكى ، وطلب الوصل ، وعاج على المنازل ، وجدد في طرق اللقاء ، وافتتن في
أساليب العطاء ، ثم أتى الشاعر العباسي ، فخلع عنه أغلال القديم ، وماشى تطور المجتمع
فقذف المحصنات وعشق الجواري والقيان ، ومارس الفواحش وتحلل من الأخلاق ، واختلط
لنفسه درباً جديداً في الشعر والحياة .

ونشأ من هذا التاريخ الطويل لحب المرأة والتدله بمحاسنها ، ووصف نفسياتها ،
ورصد ملامحها ومداورتها ما بين صد ووصل وبذل وبخل ، وجرأة وحياء ، فن من فنون
الشعر العربي ، هو الغزل . ولقد نما هذا الفن وترعرع ، لأنه وجه بيئة خصبة لنضج
الابداع ، فالعرب في تلك العصور كانوا يبيحون أن يتحدث الرجال للنساء والنساء
للرجال ، وكانت أماكن اختلاط الرجل بالمرأة متعددة ، فهما يلتقيان في المرعى
والسهر ، وفي التزاور والاستسقاء وفي الحج والمعارض ، وفي أسواق الأدب ، فتدرج
العواطف بينهما من الإعجاب ، إلى الحب ... إلى الغرام .

ولقد أجمع علماء اللغة العربية على أن الغزل هو التحدث إلى النساء ، والتودد إليهن ،
وهذا يعني « أن الغزل بالمرأة يتطلب من الرجل أن يتحدث إليها وأن يكون حديثه
مؤثراً ، جذاباً حتى يستميلها إلى وده ويستهوئها إلى حبه » (١) .

وللغزل ألفاظ أخرى منها : النسيب والتشبيب ، والعشق والحب ، والهوى والصبابة والهيام والشغف والعلاقة واللوعة، والوجد والغرام . . . الخ (٢) .

وللغزل دور في فهم الحياة الاجتماعية وتقصي حقائقها ، فهو يصور لباس المرأة ، وأعضاء جسدها وطريقة عيشها ، ومنزلتها في قومها وذوق عصرها . وعالم الاجتماع حينما يصدر أحكامه على مجتمع من المجتمعات المنقرضة ، كثيراً ما يتكئ على ديوان غزلها وما قيل فيها من أشعار ، وما وصفت به من صفات خلقية وجسدية (٣) .

ولم يكن الغزل في تاريخ الشعر العربي ، محدود الأفق ، مغلق النوافذ ، متكرر الأسلوب ، متحد المعنى ، بل عرفت له أنواع تأتي حسب المقام ، وتتقيد بالموقف . وهذه الأنواع مرتبطة ارتباطاً وشيخاً بأنواع العواطف ، فلكل عاطفة غزل ولكل احساس أداء ، ويمكن تقسيم هذا الأنواع كما يلي :

- ١ - الغزل الصناعي
- ٢ - الغزل العذري
- ٣ - الغزل الماجن

أما الغزل الصناعي ، فهو - كما يرى بعض النقاد - غزل تقليدي يصطنعه الشاعر في مقدمة قصائده حتى لا يخالف منهج القصيدة العربية ، وحتى يشبع عواطف السامعين ، لما يعرفه من ميلهم لشعر الغزل ، وللحديث عن حسن المرأة وجمالها ، وهو حينما ينشد مثل هذا الغزل ، ينشده دون أن يملأ الحب قلبه في أكثر الأحيان ، ودون أن يقصد بغزله امرأة بعينها ، شغف بها حباً ، وهام بها وجداً .

ويرى الدكتور شكري فيصل ، في كتابه عن تطور شعر الغزل في الأدب العربي ، ان المقدمات الغزلية في الشعر الجاهلي ، هي محور القصيدة الأساسي وان كل ما عداها باطل لا يؤبه له كما يرى أن رسم مقدمات القصائد الجاهلية ، بالغزل الصناعي أمر يطوي في أحشائه ظمناً لهذه المقدمات فالشاعر الجاهلي كان عفويّاً ، والصناعة لا يمكن أن تكون وليدة العفوية ، بل هي على الأصح وليدة الحضارة والشاعر الجاهلي ، بافتتاحياته الغزلية ، انما كان يعبر عن تجربة صادقة ، لاتصنع فيها ولا تقليد ، بل هي طبيعة فطرية نابعة من أعماقه .

ومن أشهر شعراء الغزل الصناعي في العصر الجاهلي امرؤ القيس ، وخاصة معلقته التي يقول في مطلعها :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل

ومن أشهرهم في العصر الاسلامي جرير في قصيدته التي يبدأها بقوله :

ما للمنازل لا يجبن حزيناً أصممن أم قدم المدى فبليناً

أما في العصر العباسي ، فقد اشتهر كثير من الشعراء بالمطالع الغزلية التقليدية كالمتنبي وأبي تمام والبحري الذي يقول في مقدمة إحدى قصائده :

ردي على المشتاق بعض رقاده أو فاشركيه في اتصال سهاده
أسهرته حتى اذا هجر الكرى خليت عنه ونمت عن اسعاده

ولا شك في أن افتتاح الشعراء العباسيين لقصائدهم بالمقدمات الغزلية المتوارثة ، كان له سبب وأي سبب فمن المعروف أن معظم القصائد العربية تبدأ بالغزل ما عدا قصائد الرثاء ، وعلة ذلك أن الغزل يصل الى السمع ثم الى القلب ، فيكون برداً وسلاماً ، حتى اذا جاء الغرض الحقيقي من القصيدة ، وليكن هجاء ، استجابت له النفس بسرعة ، وأثر فيها تأثيراً بالغاً ، وفي هذا المعنى يقول ابن الرومي :

ألم تر أنني قبل الأهاجي أقدم في أوائلها النسييا
لتغرق في المسامع ثم يتلو هجائي محرقاً يكوي القلوبا
كصاعقة أتت في اثر غيث وضحك البيض يتبعه النجيبا

الا أن المتنبي يقرر في بيته المشهور : اذا كان مدح فالنسيب مقدم ...

ان ابتداء المديح—وهو رأس فنون الشعر العربي — بالمقدمات الغزلية ، ضرورة تقليدية لا مفر منها ونموذج يجب على الشاعر احتذائه ، ومع ذلك فان عواطف الغزل الصناعي ، غالباً ، عواطف باردة مسطحة لأن الشاعر في غزله هذا ، لا يصدر عن تجربة ومعاناة ، وانما يقلد تقليداً ، ويمشي على سنن الماضين ، فليس في غزله خفقة قلب جريح ، ولا آهة صدر مثقل بالأحزان ، ولا دمة عين متعبة من السهر ، انه ينسخ معاني من سبقوه ، وقد يستعير ألفاظهم ، ليحافظ على شكل القصيدة العربية ، وليقال عنه انه شاعر غزل .

وهذا الغزل الصناعي ، يصف المرأة عن طريقين ، طريق بروحها ، وطريق جسدها ، فهو في الروح يتطرق الى ذكر لفظها وحديثها ورقتها ونعومتها ، وهو في الجسد ، يتطرق الى ذكر محاسنها ، من حور في العينين ، واكتناز في النهدين ، وعبالة في الساقين ، الى ما هنالك من محاسن أنثوية .

أما الغزل العاطفي ، أو العذري ، فهو غزل يصدر عن صدق وهوى ، وعن قلب مترع بأحزان الحب وعن احساس يضطرم بعشق المحبوبة ، وعن نفس ذاقت عذاب الغرام ، انه غزل يعبر عن تجربة مدمرة عصفت بالشاعر فأرهقته ، وترامت عليه فهدته ، فجرى الشعر على لهاته ، يصور مأساته ويرسم انفعالاته ، ويرصد عبراته ، ويفني لذاته المتألدة ، كل ذلك في لفظ شريف ومعنى عفيف ، تغمزه المودة والصفاء ، ويخلو من وصف داعر لأعضاء المعشوقة ، ولقصص اللقاء معها .

وشاعر هذا النوع من الغزل ، يخاطب امرأة واحدة أحبها وأحبته ، فهو لا يحيد عنها الى غيرها ، ولا يبدلها بصاحبها ، انما يقف قلبه ووجدانه وفكره جميعاً عليها ، يذكرها ذكراً مستديماً ، ويحن اليها حنيناً عظيماً ، يشتهي لها المسرات وان صدته ، ويتمنى لها المغبطات وان نسيت ٠٠٠ انها في خاطره أبداً ، في حله وترحاله ، في نعيمه وشقائه ، في نومه ويقظته ٠ وهو باختصار ، مخلص لها ولحبها ، لأنه يرى بها وبحبها معنى حياته وركن وجوده ٠

ومن أشهر شعراء هذا النوع من الغزل العاطفي أو العذري ، في العصر الاسلامي ، أبو صخر الهذلي وهو في شعره يبت حنيناً لا عجباً ، وحنناً مؤثراً ، وأروع ما قاله في محبوبته الأبيات التالية :

أما والذي أبكى وأضحك والذي	أما والذي أبكى وأضحك والذي
لقد تركتني أحسد الوحش ان أرى	ألفين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدني جوى كل ليلة	ويا سلوة الأيام موعذك الحشر
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها	قلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وما هو الا أن أراها فجاءة	فأبهت لا عرف لدي ولا تكر

وامام هذا النوع من الغزل العاطفي أو العذري في العصر الأموي ، جميل بثينة ، وفي شعره وفاء وإخلاص ورقة في اللفظ وجمال في المعنى ، وهو في حبه لبثينة مشغول بها ، لا يتخلى عنها الى غيرها من النساء وهو يكره العاذلات لأنهن يردن التفريق بينه وبينها وهو وفي لفؤاده مهما صدت عنه حبيبته ، ومهما أخلفت أمانيه :

ويقلن انك قد رضيت بباطل	منها فهل لك في اجتناب الباطل
ولباطل مما أحب حديثه	أشهى الي من البغيض الباذل
ليزلن عنك هواي ثم يصلنني	واذا هويت ، فما هواي بزائل

ومن شعراء هذا النوع من الغزل العاطفي أو العذري في العصر الأموي العباسي ، ابن الأحنف أيضاً ففي غزله تأثر وصبابة ، وبكاء ودمع ، وحزن وأسى لبعد المعشوقة ، ويأس وألم لصددها ، وقد أحب (فوزا) ولم ينشد الشعر في سواها ، ولم يزهده بغرامها ٠ وديوانه يغص بالغزل الباكي ، فكانه أفرد لذلك :

يا فوز هل لك أن تعودني للذي	كنا عليه منذ نحن صغار
فلقد خصصتك بالهوى وصرفته	عمن يحدث عنهم فيغار
هل تذكرين بدار بكرة لهونا	ولنا بذاك مخافة وحذار
فوددت أن الليل دام وأنه	ذهب النهار فلا يكون نهار

وشاهد هذا النوع من الغزل في العصر العباسي ، علي بن الجهم ، فقد كانت عاطفته تدفعه الى باب الحبيب وأهله ، فيهمّ بالباب ، وشوقه راعف الى وجه المعشوقة ، ولكن آنى له ذلك والدنيا تضيق أمامه على رجبها ، ولذا سلك في غزله مسلك العاطفة الشريفة ، وأقام على الوجد والهوى والحنين والشوق وفيّاً مخلصاً :

أحنّ الى باب الحبيب وأهله وأشفق من وجد به وأهيم
واني لمشغوف من الوجد والهوى وشوقي الى وجه الحبيب عظيم
وقد ضاقت الدنيا علي برحبها فيسألني من أهوى بذاك عليم

والعواطف في هذا النوع من الغزل جياشة عميقة صاخبة ، لأن الشاعر يقول ما في قلبه ، وينطق وجدانه وضميره ، ويصف حرارة مشاعره ، وهو يصل الى هذا كله عن طريق الروح والمعنويات في محبوبته ، ونادراً ما يتعرض الى الجسد والماديات ، لأن العفة تمنعه ، والحياء يحجبه .

وشاعر الغزل العاطفي أو العذري ، له مثله العليا ، كأن يكون كلفاً بحبيبته ، يهواه بعين قلبه لا بعين هواه ، ومغرماً مدنفاً مقيمًا قولاً وفعلًا ، حساً وجسداً ، ومجاهداً لفرض النفس وغصص الحب وشاية العواذل ، ووفياً أميناً لا يخون العهد ولا ينقض الميثاق .

وأما الغزل الماجن ، فهو غزل صريح ، جريء ، مكشوف ، خلا من الخجل ، وابتعد عن الحشمة ، وجانب الصواب ، وضل الطريق ، وقد كثر كثرة طاغية في العصر العباسي عن طريق البيئة الفارسية المتحللة التي طغت على البيئة العربية المحافظة في ذلك العصر ، وعن طريق الترف والنعيم وحياة اللهو والقصف ، وفسحة اللذة ، والفجور التي سادت في تلك الحقبة من التاريخ ، الا أن له جذوراً في العصر الأموي ، نماها واشتهر بها عمر ابن أبي ربيعة ، الذي وصف المرأة ، فعرض لجمالها وزينتها ، ومواضع دلهـا وفنتتها ، واغرائها ، ولم يتحرج أن يأتي وصفه دقيقاً حساساً ، ولم يستح من ذكر ما كان بينه وبين النساء من مجالس لهو وعبث ولقاءات ليلية متخفية الا أن عمر بن أبي ربيعة ، مع ذلك يبقى مهذباً بالقياس لشعراء الغزل الماجن في العصر العباسي كبشار بن برد وأبي نواس . « وبشار هو أول من سلك الى الغزل سبيلاً صريحة ملتوية معاً ، فهي صريحة بالفاظها ، ملتوية بغاياتها ، جريئة في أهدافها وصورها » (٤) .

الا أن بشاراً لم يكن رائداً في هذا النوع من الغزل ، وان ذاع صيته به ، واشتهر على معطياته ، فلقد تأثر خطأ أستاذه في هذا الفن ، عمر بن أبي ربيعة ، وتأثر خطأ الوليد بن يزيد أيضاً وكلاهما من شعراء العصر الأموي ، فنحن نجد في شعره ميلاً قوياً الى اللهو ، وخطأً بين الغزل والخمور ، وفجوراً وفسقاً شديدين ، ومن قصائده التي تعبر تعبيراً صارخاً عن مذهبه في طلب اللذة ، قصيدته الرائية :

قد لا مني في خليلتي عمر
 حسبي وحسب الذي كلفت به
 أو قبلة في خلال ذاك ولا
 أو عضة في ذراعها ولها
 أو لمسة دون مرطها بيدي
 والساق براقعة مغلغلها
 واسترخت الكف للعراك وما
 انهض فما أنت كالذي زعموا
 واللسوم في غير كنهه ضجر
 مني ومنه الحديث والنظر
 بأس اذا لم تحلل الأزر
 فوق ذراعي من عضها أثر
 والباب قد حال دونها الستر
 أو مص ريق وقد علا البهر
 لت : ايه عني والدمع منحدر
 أنت وربّي مغازل أشمر

ولم يكن بشار وحيداً في هذا الباب ، فقد تبعه أبو نواس في مذهبه ، وأجرى على لسانه غزلاً فيه عبث ، ومجون واستهتار وحيوانية ، فهو يتعرض في شعره المفضوح الى الاماء والقيان ، وهو يتظاهر بالحب والهوى لكنه لا يميل في الواقع الا الى اشباع غرائزه الجنسية ونزواته البهيمية ، همه أن يوقظها اذا خمدت ويستثيرها اذا نامت ، وهو بالاضافة الى هذا كله يغلو ويسرف في الميل الى معاشره المرأة ووطئها ، وديوانه حافل بهذا النوع من الشعر الداعر ، الذي يموج بالشهوة المتأججة ، والرغبة الجامحة ، واذا كان تهذيبه يظهر في شيء ففي طلبه للقبلة ، والفوز بها بعد امتناع ونصب :

سألتها قبلة ففزت بها
 فقلت : بالله يا معذبتني
 فابتسمت ثم أرسلت مثلاً
 « لا تعطي الصبي واحدة ،
 بعد امتناع وشدة التعب
 جودي بأخرى أقضي بها أربي
 يعرفه العجم ليس بالكذب
 يطلب أخرى بأعنف الطلب »

وأبو نواس في شعره الماجن انما يتأثر أستاذه المباشر وهو والبة بن الحباب الذي كان شاعراً ظريفاً غزلاً ، تتلمذ على يديه أبو نواس فغرف من بحره ، وجاراه في شعره « وقد يكون من العدل أن ننصف أبا نواس في اعطائه نصيبه الذي يستحقه من المسؤولية عما طرق في باب المجون ، فانه لم يكن خالقاً مبتكراً ، لكنه اتسع فيه وفتح أبواباً ، وكشف منه وجوهاً » (٥) .

وحظ اللواعج النفسية في هذا الشعر الماجن ، ضئيل ، أما حظ الشهوات الجسدية فموفور ، لأن الشاعر الغزل الماجن لا يستجيب لنداء قلبه بقدر ما يستجيب لنداء جسده ، فهو يبحث عن اللذة ، ويجري وراءها ولا يلتفت الى مريض الشوق في أعماقه ، لأن قلبه فارغ من الحب ، خال من الصباية ، لم يعشق واحدة بعينها ولم يخلص لمحوبة بذاتها ، لذا أتى شعره يموج بالأنين الحسي أكثر مما يموج بالأنين العاطفي ، ويسترسل في استعماله الألفاظ المكشوفة أكثر من استرساله في استعمال الألفاظ المستورة ، ويدور على المعاني المفضوحة أكثر من دورانه على المعاني العفيفة .

هذه هي أنواع الغزل في الشعر العربي ، ونحن نلاحظ أن المرأة هي المقصودة ببوح الشاعر وصبايته وحيه . لكننا إذا نظرنا الى الموضوع من زاوية أخرى ، وجدنا أن هذا الغزل ، يتطور تطوراً ملموساً وخاصة في العصر العباسي ، وهذا التطور لا يتعلق بالصياغة والمعنى ، بقدر ما يتعلق بالمخاطب الذي يوجه اليه الغزل فقد وجد شعراء في هذا العصر ، تأثروا بطبيعة الحياة الجديدة التي طرأت على المجتمع العباسي بسبب اختلاط العرب بالأعاجم وشيوع العادات والتقاليد الفارسية ، ويدافع من نفوسهم المنحرفة ، فجادوا عن الغزل بالمرأة الى الغزل بالذكر ، وأول من راد هذا الطريق في الغزل بالذكر ، أبو نواس ، لأسباب نفسية على الأكثر ، ولأنه كان مجنئاً عليه في صغره من قبل أستاذه والبة بن الحباب ، فقد عمد أبو نواس الى الغزل بالذكر في مقدمة قصائده بدل الوقوف على الأطلال ومخاطبة الأنثى ، وهو في غزله هذا يبت غلامه لواعج قلبه ، ويطلب منه الوصل ، ويصف جماله ، تماماً كما يفعل في غزله للأنثى ، وفي قصيدة له يعرض فيها بالعشاق العرب ، لأنهم أحبوا نساء ولم يلتفتوا الى حب الغلمان ، ويرى في حب الرجل لغلام ، لذة لا ترقى اليها لذة حبه لامرأة ، يقول أبو نواس في غلام اسمه رحمة :

أحببت من شعر بشار لحبكم بيتا كلفت به من شعر بشار
يا رحمة الله حلي في منازلنا وجاورينا فدتك النفس من جار
إذا ابتهلت سألت الله رحمته كنيث عنك وما يعدوك اضماري

وتابع أبو نواس في غزله بالذكر كثير من الشعراء ، كالبحتري الذي كان يحب غلاماً اسمه (نسيم) وكحماد عجرد في حبه لغلامه (بشر) وكعبد الله بن المعتز في صبايته بغلامه (نشوان) .

وعندما فشا هذا النوع من الغزل الخليع السافل ، ورأت القيان والاماء عزوف الشعراء عن متابعتهم ووصف محاسنهن ، والتغزل بجمالهن ، اتجهن اتجاهاً جديداً في الزبي ، فأصبحن يلبسن ثياباً تحاكي ثياب الغلمان بل هي نفسها ، وأخذن يقصصن شعورهن على طريقة الغلمان ، حتى يستلفتن شعراء المذكر لهن ثانية واستجاب الشعراء للدعوة ووقعوا في المصيدة ، وراحوا يتغزلون بالغلاميات ، فالحسين بن الضحاك يتغزل بغلاميته بقوله :

مؤذرة السربال مهضومة الحشا غلامية التقطيع شاطرة القد
محنأة الأطراف رؤد شبابهها معقربة الصدغين كاذبة الوعد
أقول ، ونفسي بين شوق وزفرة وقد شخضت عيني ودمعي على الغد
أجيزي على من قد تركت فؤاده بلحظته بين التأسف والجهد

ويتطور مخاطب شعر الغزل ، ويتطور حتى يصل عند ابن الفارض للتغزل بالذات الالهية ، وعشق محاسنها والركوع لمظمتها ، وطلب عفوها ومغفرتها ، قابساً أصول هذا التصوف من رابعة العدوية التي عاشت في العصر الأموي .

كان لا بد من هذه الالمامة بشعر الغزل في الأدب العربي خلال العصور الجاهلية والاسلامية والأموية والعباسية ، حتى نستطيع أن ندرس على ضوءها غزليات صفى الدين الحلبي الذي ولد وعاش في عصر الانحطاط من سنة ٦٧٧ الى سنة ٧٥٢ هجرية .

وصفى الدين الحلبي - كما تدلنا ترجمة حياته المنشورة في مقدمة ديوانه (٢) - هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا ، ولد في الحلة من العراق ، واليها نسب ، ومات في بغداد ، وقد ألع بنظم الشعر منذ شب عن طوقه ، وكان شيعياً قحاً وفارساً شجاعاً ، وعربياً صافي العروبة ، وخاض غمار الحروب التي وقعت بين أهل هولاءكو لأجل العرش ، ثم ما لبثت الفتن أن حملته على الرحيل الى آل أرتق ملوك ديار بكر بن وائل ، فمدح ملكهم المنصور نجم الدين أبا الفتح بتسع وعشرين قصيدة ، وهي المعروفة بالأرتقيات . وتدل على قدرته اللغوية وخصب شاعريته . ثم اتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل ، ثم بابنه شمس الدين ، ولما رث جبل الأمن ، رحل الى مصر ومدح سلطانها الناصر بعدة قصائد دعاها بالمنصوريات . وكان متفنناً في البديع فنظم قصيدة عدد أبياتها ، مئة وخمسة وأربعون بيتاً ، سماها (الكافية البديعية في المدائح النبوية) . ولم يترك فناً من فنون الشعر الا ونظم فيه ، نظم في الفخر والمدح والطرديات والاخوانيات والمراثي والخمريات والغزل والشكوى والاعتذار والأهاجي والزهديات والمجونيات .

ولا بد لنا ونحن نهم بدراسة غزليات صفى الدين الحلبي ، من أن نسلط أنواراً كاشفة على الدور المملوكي المغولي الذي عاش فيه شاعرنا ، من حيث الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، لعلها ترشدنا الى فهم شعره ، والحكم عليه حكماً موضوعياً مقترباً بطبيعة الفترة التاريخية التي انغمس فيها ، وبمقاييس الشعر في ذلك العصر ، وفي عصرنا الحاضر ، ومن أجل ذلك نضع أمام أعيننا الملاحظات التالية :

١ - انتقل مركز الحضارة العربية من بغداد الى القاهرة عندما انتقلت الخلافة العباسية الى هناك .

٢ - تسلطت العناصر الأجنبية على الحكم ، نتيجة اعتزال العرب الأمور السياسية ، وانصرفهم الى كسب العيش عن طريق الزراعة والصناعة ، وشاع اعتماد المماليك على القوة والدسائس في حكم البلاد .

٣ - زاد تفكك المجتمع ، وتفاقم التناقض بين طبقاته ، فمن أغنياء غنى فاحشاً الى فقراء فقراً مدقماً ، ومن اهتمام بقشور الحياة وزخرفها الى ترك لجورها وحقائقها ، ومن منازعات عنصرية قومية ، الى خصومات دينية مذهبية .

٤ - نشطت في هذا الدور حركة التأليف ، وذلك لغيرة العلماء على العلم والدين ، ولتشجيع المماليك للعلماء تقرباً للرعية المسلمة « والتقى في هذا التأليف مفهومان للأدب بمعناه الخاص وبمعناه العام ولكن هذه الكثرة من الكتب التي ألقت في هذا العصر ، لا هي الى الأدب الصرف ، ولا هي الى المعرفة الصرفة ، ولعل العامل الأساسي الذي الذي ساق التأليف هذا المساق ، هو تكدر التراث الأدبي طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد

جيل ، واتساع ذاكرة الجماعة العربية الشعرية ، وتتابع شعراء العصور ،
العباسية «(٧) ، مما لم يدع مجالاً للتصنيف ، وجمع ما ضمته بطون الكتب
السابقة .

قبل أن نبدأ بدراسة غزليات صفي الدين الحلبي وندخل في صميم الموضوع ، لا بد لنا
من أن نشير الى أن هذا الشاعر ، لم يكن ذاباع طويل ومقدرة فنية في شعر الغزل ،
وانما اشتهر في أبواب الفخر والحماسة والمديح ووصف الطبيعة ، ذلك لأن مخاضات الحياة
التي عاشها وما فيها من حروب خاض غمارها ، وارتحالات قام بها وألوان من التجارب
عاناها ، جعلته يلتصق شعرياً ببعض الفنون الأخرى ومنها الغزل .

ومن خلال قرائتنا لمعظم القصائد في ديوانه ، ولباب الغزل والنسيب منه خاصة ،
وجدنا أن غزل صفي الدين الحلبي ، ينقسم الى ثلاثة أنواع :

١ - غزل صناعي :

وهو يفتتح به قصائد المديح على الوجه الأعم ، ونادراً ما يستعمله في الفخر والحماسة ،
ويسير في هذا النوع من الغزل سيرة من سبقه من الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين ،
متأثراً خطاهم ناسجاً على منوالهم من حيث الطريقة المتبعة في المقدمات الغزلية ، لا من
حيث السبك الفني الراقي ، فيقف على الأطلال الدوارس والآثار المعفاة ، فيناجيها
ويستنطقها ، ويبثها حرقة قلبه ونوازع نفسه ، ويبكي أمامها مستعطفاً ، شاكياً ،
ويستعيد معها الذكريات الخوالي وأيام الأنس والصفاء :

لا تخش يا ربع الحبيب هموماً	فلقد أخذت على العهد عهداً
وليفنين ثراك عن صوب الحيا	صوب المدامع ان طلبت مزيداً
كم غادرت بفناك يوم وداعنا	سحب المدامع منهلاً موروداً
ولكم سكبت عليك وافر أدمعي	في ذلك اليوم الطويل مريداً

ثم ينتقل ليصف الحور الحسان اللواتي كان يلتقيهن في هذا الربع ، بأنهن أخجلن زهر
الأقحوان وضاهين شقائق النعمان ، وبأن أردافهن ثقيلة ، وقدودهن مياسة ، وبعدها
يصل الى وصف أناته العاشقة وسقم جسمه ، وسهد جفنيه ، مترقباً زيارة الحبيبة :

كم قد سهرت الليل أرقب زورة	منها فلم أر للصباح عموداً
ورعيت أنجمه فأكسبت السها	سقي وأكسب جفني التسيهداً
وحملت أعباء الغرام وثقله	فرداً وحاربت الزمان وحيداً

ويلاحظ في غزل صفي الدين الحلبي الصناعي ، تضخم (الأنا) عنده ، وانتفاخ
الشخصية ، فهو كثيراً ما يخاطب مجموعة من النساء ، لا امرأة واحدة ، ولعله يفعل ذلك

حتى يظهر أنه عاشق مرغوب ، أو معشوق مقصود أو لعله يفعل ذلك حتى يؤجج نار الغيرة في صدر محبوبته ، ان كان له محبوبه معينة أو لعله يفعل ذلك حتى يمد نفسه الشعري ويطيل المقدمة الغزلية ، ليرضي ممدوحه ويكسب ثناءه ، وليتخلص من جذب عواطفه وتكرارها ، وليستر هذا الجذب بأنواع من الحلية اللفظية :

أسبلن من فوق النهود ذوائباً	فجعلن حبات القلوب ذوائباً
وسقرن لي فراين شخصاً حاضراً	شدهت بصيرته وقلباً غائباً
أشرقن في حلل كأن وميضها	شفق تدرعه الشמוש جلابياً
ومعربد اللحظات يثني عطفه	فيخال من مرح الشبية شارباً
حلو التعب والدلال يروعه	عتبي ولست أراه الا عاتباً

كما يلاحظ في غزله جنوحه نحو جسد المرأة ، يصفه ويشبب به ، أكثر من جنوحه نحو روحها ونفسياتها وطباعها ، ولعل سبب هذا الجنوح التفات الحكام وشواذ الشعب الى مواجهة الحياة مواجهة صريحة ، بدون تستر واعوجاج ، وانغماس الناس في تلك الفترة بالملذات ، بعد أن أثقلوا بالحروب العنيفة ، والفتن الطائفية وبعد أن أرهقتهم مظالم السلاطين ودسائسهم .

ويلاحظ في هذا الغزل أيضاً برودة العواطف وسطحياتها وتكلفها ، لأن الشاعر لا يستقي من ينبوع نفسه وانما يستقي من ينابيع الشعراء السابقين ، ولأنه حينما ينظم هذا الغزل ، ينظم بذاكرته وعقله وثقافته أكثر مما ينظم بقلبه ومشاعره وانفعالاته .

ما بين طيفك والجفون مواعد	فيفي اذا خبرت أني راقد
اني لأطمع في الرقاد لأنه	شرك يصاد به الغزال الشارد

٢ - غزل عاطفي :

الغزل كما هو معروف ، حديث القلب العاشق للقلب العاشق ، والنفس المرهفة للنفس المرهفة ، وقد حفظ لنا تاريخ الغزل في الشعر العربي ، أسماء شعراء عانوا تجربة الحب معاناة فاعلة ومنفعلة ، فأعطوا أدبنا أيضاً من العواطف المحترقة ، والأنات المجروحة ، والآهات الحارة ، وسربلوه برومانسية رائعة في المضمون ، ولونوه بالوان الشعور الرقيق الحساس ، وهم لم يقدموا لنا هذا النتاج الفني الا لأن تجربة الحب الصادقة صهرتهم في مصهرها ، وقذفتهم في أتونها ، والا لأنهم أيضاً أحبوا حببية واحدة فأخلصوا لها وعاشوا من أجلها . ولقد اقترنت أسماء هؤلاء الشعراء بأسماء محبوباتهم ، كجميل (بثينة) وكثير (عزة) ومجنون (ليلى) وكقيس بن ذريح في حبه للبنى ، وذو الرمة في حبه لمية ، وعنترة في حبه لبلبة .

وصفي الدين الحلبي لم يعان مثل هذه التجربة ، ولم ينفرد لامرأة بعينها ، نقول هذا بعد أن طالعنا كل شعره الغزلي ، فلم نرفيه اندفاعاً قلبياً نحو محبوبه بالذات ، ولا وجداً معربداً ينم عن صباية ، وشاعر كهذا لم تحرك أعماقه تجربة الحب ، ولا يمكن أن يقول غزلاً عاطفياً حاراً ، نابهاً عن فؤاد مدنف ، ونادراً ما نقع عنده على قطعة تتسع بعاطفة صادقة ، وانفعال هائج ، كقوله يتذكر ويناجي ديار الحبيبة :

يا ديار الأحباب بالله ماذا فعلت في عراصك الأيام
أخلفتها يد الجديدين حتى نكرت من رسومها الأعلام
قد شهدنا فعل البلى بمغانبك ودمع الغيوم فيك سجام
واقترضنا منها الدموع فقالت كل قرض يجز نفعاً حرام

وهو حقاً يذكر في شعره ما يقع للأحباء من وصل وصد ، وسهر في الليل وحزن في النهار ، ولوعة في البعد وفرحة في القرب ، ولهفة للقاء ، وخوف من الفراق ، إلا أن هذا كله يأتي على شكل مسطحات فكرية صناعية ، لا نصيب فيها لوقدة الشعور وتوهج الحنايا ، وإنما يغلب عليها الافتعال والتقريرية المباشرة .

وليس هذا بمستغرب ، فقد خمدت العواطف في هذا العصر ، خموداً محزوناً ، وانشد الشاعر نحو ظواهر الشعر وعاف بواطنه وأصبح كما قلنا من قبل ينظم بعقله أكثر مما ينظم بقلبه ، وهذا لا يمكن لعاطفة باردة خامدة سقيمة أن تفجر شعراً حاراً مندفعاً صحيحاً .

آخر من بني الأعراب حفت جيوش الحسن منه بعارضين
تلاحظ سوسن الخدين منه فيبذلها الجياع بوردتين

٣ - غزل ماجن :

وجدنا خلال دراستنا لأنواع الغزل في الشعر العربي ، أن الغزل الماجن قد فشا وشاع في العصر العباسي شيوعاً عظيماً ، وأن هذا الغزل تناول المذكر مخاطباً له ، وموضوعاً لبثه الغرام والحنين والشكوى ومادة لوصف مواطن الجمال والحسن فيه .

وقد استمرت هذه البدعة في الدورين الأخيرين من أدوار العصر العباسي ، وانسجبت حتى عصور الانحطاط ، ومارسها الشعراء بالحاف ، وتابعهم في ذلك شاعرنا صفي الدين الحلبي ، ونستطيع أن نقول أن غزله مشطور شطرين ، شطر في النساء وشرط في الغلمان ، وهو في غزله الغلامي بارع متفنن ، متعدد الأغراض متنوع الأساليب ، ظريف التناول ، كثير التساؤل ، ويمكننا أن نقسم غزله في الغلمان الى قسمين : الأول لا يجانب فيه الأخلاق والدوق ، والثاني يجانب فيه الأخلاق والدوق . فأما القسم الأول فيدور على وصف الغلمان ومخاطبتهم ومناجاتهم والتغزل بهم تغزلاً تظهر فيه العاطفة أكثر من ظهورها في غزله النسائي .

ونستطيع أن نجمل آراءه في هذا القسم بالملاحظات التالية :

أ - معظم غلمان صفى الدين الحلي يحملون أسماء أنبياء كيوسف وسليمان وداود وموسى وإبراهيم ، ويستغل شاعرنا هذه الأسماء في شعره استغلالاً حسناً ، فيستفيد من معاني التسمية وما تحمله من دلائل كقوله في غلام اسمه يوسف :

يا سمي الذي به اتهم الذئب ب وأفضى إليه ملك العزيز
لو تقدمت مع سميتك لم يم س فريداً في حسنه المنبوز

(والمنبوز بالزاي هنا بمعنى المتعارف) .

وقوله في غلام اسمه سليمان :

يا سمي الذي دانت له الجـ بن وجاءت بعرشها بلقيس
غير بدع اذا أطاعت لك الآنـ س وهامت الى لقاءك النفوس

وقوله في غلام اسمه إبراهيم :

يا سمي الذي فدى الله اكرا ما له نجله بذبح عظيم
لو تمكنت لاقتديت تدانيـ ك بسوداء مهجتي والصميم

ب - لا يصف الشاعر غلمانه ويتغزل بهم في حالة الصحة فقط ، وأجواء الانطلاق والسرور ، بل يصفهم ويتغزل في حالة المرض أو التمارض المعتمة ، فمن هذا قوله في غلام ممرض :

لا حال في جوهر من جسمك العرض ولا سرى في سوى الحافظك المرض
حوشيت من سقم في غير خصرك أو في موعدك في اخلافه غرض
فتور نبضك من عينيك مسترق وضعف جسمك من جفنيك مقترض

وقوله في غلام رمد :

وما رمدت عينك الا لفرط ما أصر على كسر القلوب انكسارها
أرقت دم العشاق في معرك الهوى فصار احمراراً في الجفون احوارها

ج - وغلمان صفى الدين الحلي ، فنانون ، فمنهم من يحسن الرقص ، ومنهم من يجيد الضرب على العود ، ومنهم من يتفنون في لعب الشطرنج ، ومنهم من يتفنون في سقاية الخمر ، وشاعرنا في هذا كله يتابعهم متغزلاً واصفاً ، فمن ذلك قوله في غلام راقص :

جاء في قده اعتدال مهفف ماله عديل
قد خففت عطفه شمال وثقلت جفنه شمول
ثم انثنى راقصاً بقـ تثنى الى نحره العقول
فعطفه داخل خفيف وردفه خارج ثقیل

وأما القسم الثاني - وهو الذي يجانب فيه الأخلاق والذوق - فيكاد يخرج من باب المجون ، الى باب التسفل والبذاء وانعدام الحياء ، ذلك لأن الشاعر في هذا القسم من التماجن ، يخلع عنه مؤثر الوقار ، وينحدر الى حضيض الشهوة الشبقة ، فيصف طريقة معاشرة الغلمان معاشرة جنسية ، بألفاظ بذيئة وصور قبيحة ، وعواطف منحطة ، وأفكار سخيفة ، ونحن نجل قلمنا عن الاستشهاد لهذا النوع من المجون الفاجر الداعر ان في النساء وان في الغلمان ، ونعتذر للشاعر بقولنا : انه نظم هذا النوع من المجون حتى يثبت مقدرته على خوض كل فنون الشعر ، وخاصة « فيما اقترح عليه نظمه على نمط ابن الججاج امتحاناً له » .

★ ★ ★

بعد أن عرضنا لأنواع الغزل عند صفي الدين الحلي ورصدنا ميزاته ، لا بد لنا من أن نتحدث عن الطرائق أو المتكآت التي يعتمد عليها الشاعر في تلوين غزله ، ونحن نقصد بالطرائق أو المتكآت ، الوسائل والدروب والمنعطفات التي تصب الغزل في أداء فني ، يختلف باختلاف المواقف ، ويتباين بتباين درجة العواطف ، ذلك أن لكل شاعر مسلكاً يسلكه ، ونموذجاً يحتذيه في تفريغ الأثر الفني ، والباسه لبوس الصناعة ، وها نحن أولاء فيما يلي نوجز أهم هذه الطرائق ونمثل لها :

١ - مناجاة الطيف واستحضاره : لا عجب اذا قلنا ان جملة العشاق يشكون من الهجر والبعد والفراق ، والانسان بما وهبه الله من نعمة التخيل ، يستطيع أن يستحضر في ذهنه ، وبواسطة عينيه ، صورة من يحب ويفتقد ، اذا كان بعيداً ، ونعمة التخيل هذه تنقلب عند العشاق الى قوة التخيل ، فهم يستطيعون أن يجسدوا المحبوب أمام أعينهم ، فيناجون طيفه ويشكون له العذاب ويطلبون منه الوصل .

وفكرة الطيف ومناجاته واستحضاره وتجسيده ، قديمة في شعرنا العربي ، نجد لها أصولاً في بعض أبيات للجاهليين ، وخاصة عند قيس بن الخطيم ، وعمرو بن قميئة وطرفة بن العبد ، ونجدها تنمو في العصر الأموي عند جرير ، ويشهد نموها فتصل الى حد الابداع في العصر العباسي عند البحتري :

طرفة بن العبد وهو من الجاهليين يطرد خيال الحبيبة في قوله :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب اليها فاني واصل حبل من وصل

ويقلده جرير وهو من الأمويين ، فيطرد خيال الحبيبة طرداً رقيقاً في قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

ويعكف أبو نواس وهو من العباسيين ، على الطيف فيصفه وينفخ فيه الحياة بقوله :

إذا التقى في النوم طيفانا عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العينين ، ما بالنا نشقى ويلتذ خيالنا

ويأتي البحري فيكثر من وصف الطيف ويقلب فيه المعاني ، فيجسمه ويلقاه ويعاتبه ويودعه ، ويبلغ فيه شأواً رفيعاً :

ولم أنس اسعاد الكرى بدنوها وزورتها بعد الهدوء وما تدري
وأخذني بعطفها وقد مال ردفها بطيعة العطفين مهضومة الغصر
أو :

أخيل علوة كيف زرت وعندنا أرق يشرد بالخيال الزائر
طيف ألم بنا ونحن بمهممه مرت يشق على الملم الخاطر

ويقع صفى الدين الحلي ، على ما قيل في الطيف والخيال في شعر البحري واضرابه فيركب نفس المركب ويسير على نفس المنوال، فيكثر من وصف الطيف في أشعاره كثرة ملحوظة ، الا أنه يتناوله على الغالب من الخارج ، فيتحدث عنه حديثاً دون أن يناجيه ، أو يستنطقه ، أو يبثه شكواه أو يقاسمه همومه أو يطرد زيارته أي انه يقف منه موقف الواصف فقط ، لا موقف المجسد ، وهو على كثرة ذكره للطيف ، لا يقلب فيه المعاني ، انما يدور على معنى واحد ، هو أن الطيف قد يكون بديلاً عن المحبوبة في أيام البعاد ومعوضاً عنها في أوقات الصدم ، وما يتفرع عن هذا المعنى من معان جانبية ، فطيف الحبيبة يصافحه في يقظته وفي منامه :

لم تغل منك خواطري ونواظري في حال تسهادي وحين أنام
فبطيب ذكر منك تبدأ يقظتي وبشخص طيفك تختم الأحلام
وطيف الحبيبة لا يجفوه ولا ينساه ، بل دائم الذكرى له :

لعمرك ما تجافى الطيف طرفي لفقد الغمض اذ شط المزار
ولكن زارني من غير وعد على عجل ، فلم ير ما يزار

وطيف الحبيبة كريم معطاء سمح ، فاذا بغلت الحبيبة باللقاء فهو لا يبخل ، واذا ضنت باهداء التحية فهو لا يضمن :

لئن بغلت ان الخيال مسامح وان غضبت فالطيف منها مصالح
حبيب لاهداء التحية مانع وطيف للذات التواصل مانع

٢ - أسلوب الحكيم :

أسلوب الحكيم ، فن من فنون البديع ، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه ، اما بترك سؤاله ، والاجابة عن سؤال لم يسأله ، واما بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد ، تنبيهاً على أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال ، أو يقصد هذا المعنى ، ولهذا الأسلوب أصول وشواهد في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) . وكقول ابن حجاج البغدادي :

قلت : ثقلت اذ أتيت مراراً قال ثقلت كاهلي بالأبيادي

قلت : طولت قال أوليت طولاً قلت : أبرمت قال جبل ودادي

ويستعمل صفي الدين الحلي هذا الأسلوب في قليل من غزلياته ، فيصيب حظاً عظيماً من الابداع والجمال والظرف ، لما في قوله وقلته من اصابة للمعنى ، ولطف في المأخذ ، واتساق بين الأفكار والألفاظ :

قالت : كحلت الجفون بالوسن قلت : ارتقاباً لطيفك الحسن

قالت : تسليت بعد فرقتنا قلت : عن مسكني وعن سكني

قالت : تشاغلث عن محبتنا قلت : بفرط البكاء والحزن

قالت : تناسيت ، قلت عافيتي قالت : تناءيت ، قلت عن وطني

قالت : تغليت ، قلت عن جلدي قالت : تغيرت ، قلت في بدني

ومثل هذا الأسلوب ، أسلوب المحاورات والأجوبة ، الذي يقص فيه شبه قصة ، أو حادثة وقعت له ، ويكون الشاعر طرفاً فيها ، فيبدأ مع محاوره بسلسلة من الاستفهامات والأسئلة ، وخير شاهد على أسلوب المحاورات هذا ، القصيدة التي يبدأ بها الشاعر باب الغزل ، يفتتحها بقوله :

ظن قومي أن الأساة ستبري داء وجدي ، والعلاج يفيد

فأتوا بالطبيب وهو لعمري في ذوي فنه ، مجيد مجيد

٣ - استعادة الذكريات :

وهي كالطيف ، أسلوب من أساليب تهذئة العاشق ، لوجده ، يفزع اليه الشاعر في أويقات الحرج والحزن والمكابدة ، فيستعيد في خاطره أيام لهوه وغبطته ، ومفاني انسراحه ونشوته ، وتكاد لا تخلو قصيدة من قصائد صفي الدين الحلي الغزلية ، من

استعادة الذكريات ، وبخاصة في الغزل الصناعي ، فهو يلتذ بالذكريات اذا ماجت صورها أمام حدقتيه ، ويلتذ أيضاً بحديث اللاحي الذي ينمى عليه لجوؤه الى جوها :

ويلذ لي تذكاركم فأعيره أذنأ لغير حديثكم لم تأذن
وأقول لللاحي الملح بذكركم زدني ، لعمر أبيبك قد أطربتني
أسكرتني بسلاف ذكر أحبتي يا مترع الكاسات فاملاً واسقني

★ ★ ★

والآن نتقدم في دراستنا خطوة أخرى ، فننظر في بناء القصيدة الغزلية عند صفى الدين الحلبي ، من ناحية المضمون والشكل ، أو من ناحية المعنى والمبنى ، ولا بد لنا أن نقول ، بداءة ، اننا حينما ندرس بناء القصيدة الغزلية عند شاعرنا ، فكأننا ندرس بناء القصيدة عنده بشكل عام ، وفي مختلف الأغراض ، فشخصية الحلبي الفنية تتردد وتكرر ، في معظم قصائده ولا نستطيع أن نلاحظ فيها خطأ للتطور ، فشعره كله نفس واحد ومنهج منسوخ ،

ومضمون القصيدة الغزلية عند الحلبي ، مضمون فارغ ، مستعار ، فارغ لأنه لا يضيف جديداً ، الى موروثنا الغزلي ولا يفتح نافذة بكرة في أفق الفكر ، ومستعار لأنه يجتر عطاء السابقين من الشعراء ولا يسعى للابتكار والجدة فالمعاني الغزلية التي يوردها الشاعر في قصائده ، مقتبسة عن المتقدمين ، وقد يأخذها الشاعر ببعض التحوير حتى يستر اقتباسها ، الا أنها تبقى مع ذلك مفضوحة للبصر بسالف الشعر وجديده ، وهذه المعاني ينقصها التسلسل والاتساق والترابط ، ويكثر فيها الاستطراد والانتقال المفاجيء ، ويشوبها غموض والتواء ، بفعل الاغراق في الصناعة البديعية ، وتفتقد للصدق الفني ، لأن المبالغة الممقوتة تسودها ، وتشكو من الابتذال والتقليد ، لأنها سطحية .

ومن المألوف أن يقتبس الشعراء بعضهم عن بعض شيئاً من المعاني ، وهذا الاقتباس ليس مستنكراً فيما اذا حسن المقتبس المعنى الذي أخذه ، أو استطاع أن يكسوه حلة جديدة ، أو يزيد عليه فكرة مبتكرة ، ولكن شاعرنا لم يرق الى هذا المستوى ، بل هو على العكس ، اقتبس فانحط عن أخذ عنه .

ومع أن شاعرنا يلبس معانيه حلة قشبية مزركشة ، ويعنى بجمال التعبير في التركيب ، الا أن أخيلته صناعية مفتعلة ، جافة لا تعدو والتشاييه والاستعارات والكنائيات والمجازات ، ولا تعبر بالفكر الا في حدود البصر واللون والصوت ، وهي على الأكثر الغالب ، نتاج ثقافة ودراسة وذاكرة قوية ، وليست نتاج خيال وثاب مجنح ، ومن هنا لم يستطع الشاعر بها اثاره عواطفنا لأنها مكرورة متداولة . ونستطيع أن نضرب مثالا على سوء الاقتباس في المعاني والصور بالبيتين التاليين :

قال عنتره يخاطب عبلة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبقارق ثغرك المتبسم

وقال صفي الدين الحلي مقلداً :

ولقد ذكرتك والسيوف مواطر كالسحب من وبل النجيع وطله
فوجدت أنساً عند ذكرك كاملاً في موقف يخشى الفتى من ظله

فبيتا عنتره تلتقي معانيهما بصورهما التقاء رائعاً ، على حين أن بيتي الحلي يفتقدان هذا الالتقاء بين المعاني والصور ، ويشكوان من الفثاة والتعمد .

وتبدو تقريرية خيالية ومباشرة في كثير من قصائده الغزلية أيضاً ، فهو حينما يصور يوازن بين المشبه والمشبّه به ، أو المستعار والمستعار له ، موازنة دقيقة أمينة ، لا تثير فينا انفعالا أو هزة شعور ، ولا تنقلنا من عالم المحسوس الى عالم اللا محسوس ، ولا تسوق خيالنا الى عوالم جديدة .

ولا شك أن المبالغة اذا أكسبت المعنى طرافة ومنتعة ، وزادته اشراقاً وجمالا ، كانت مستحبة مقبولة ، أما اذا جانبت هذه المبالغة الصدق الفني وطعنت المعنى ولم تخدمه ، فانها تسيء الى حلاوة الشعر ورونقه ومثل هذه المبالغات الأخيرة عند صفي الدين الحلي كثيرة وملحوظة ، منها قوله :

متيم لا تهتدي عواده الا بما تسمع من أنينه
أصبح يخشى الظبي في كناسه ولا يخاف الليث في عرينه

ومما يسيء الى المعاني في غزليات الحلي ، افراطه في استعمال المحسنات اللفظية من طباق وجناس ومقابلة الخ . . . افراطاً يذهب بجمال الشعر ، ويجعله حلية لفظية ، تتكئ على تناغم الألفاظ وموسيقيتها ، وتهدر من أجل ذلك دور الأفكار ، والحلي في هذا الافراط بالمحسنات اللفظية انما يتابع أبا تمام ، ولكن شتان ما بينه وبين أستاذ البديع ومفتق عجائبه ، فشاعرنا يأتي بالمحسنات اللفظية للمحسنات اللفظية بدون هدف آخر ، وحتى يثبت براعته في استقصاء كل أنواع البديع ، وطول باعه في هذا الفن ، وأبو تمام يأتي بالمحسنات اللفظية مسرلة بالتصوير ، أو التصوير مسربل بها ، ويغوص بواسطتها على المعاني ، ويعمل فكره في غرائبها حتى يصل حد الغموض ومن أمثلة الطباق الفارغ الذي لا ينفع في تصوير معنى أو توضيح فكرة ، قوله :

واني ان حلفت له يميناً فما غير الفعال لها شمال
فيامن سرنى باللفظ منه ولكن ساءني منه الفعال

ومن أمثلة الجناس الذي يكثر كثرة عجيبة ومملة في هذه الغزليات وكل أغراض الشعر الأخرى عند الحلي ، ولا يفيد شيئاً سوى تطريب موسيقي بائخ ، قوله :

أطعت ما سن أعدائي وما فرضوا وشاهدوك بسخطي راضياً فرضوا

هذا عدا عن التورية والاستخدام وتأكيده المدح بما يشبه الذم ، وتأكيده الذم بما يشبه المدح ، وكل أنواع البديع المعروفة وتفرعاتها :

والواقع أن مذهب البديع الذي أصّله وتفنن فيه تفنناً رائعاً أبو تمام ومعاصروه من الشعراء العباسيين والذي كان يهدف الى تجميل الشعر في الشكل ، وتعميقه في المعنى ، ووصل الفلسفة والمنطق فكرياً ، لا لفظياً بروح القصيدة ، الواقع أن هذا المذهب ، انقلب عند صفى الدين الحلبي الى هندسة لفظية خارجية وأوعية براءة فارغة ، لا تحمل في مطاويها الا الالاحاح في التصنع والالاحاف على الزركشة ، وخنق المعاني الشعرية بأنشطة البديع ، واستشهاد الخيال في حومة الجناس والطباق والمشاكلة .

ولا يكتفي شاعرنا في غزلياته بالاسراف في البديع ، والاكتثار من فنونه، بل تشده (موضة العصر) اليها شداً عنيفاً فيستجيب لها فرحاً ، ويستعمل في شعره مصطلحات النحو ، مضمناً اياها معانيه الغزلية :

يا جاعلي خبري بالهجر مبتدئاً لا عطف فيكم ولا لي منكم بدل
رفعت حالي ، ورفع الحال ممتنع اليكم ، وهو للتمييز يحتمل

فهو من أجل أن يدل على معرفته بالخبر والمبتدأ ، والعطف والبدل والحال والتمييز ، يجفف نبضات قلبه ويأسر عواطف حبه ، وينساق وراء المظاهر الخلابة والجواهر المزيفة ، ويترك الأعماق الخلاقة والآلي الكريمة .

كما يستعمل في شعره أيضاً آيات من القرآن الكريم ومصطلحات الفلاسفة والمناطق وعلماء الكلام ويمزجها معاً :

وأعلم أن بعض الظن اثم ولكن لليقين به احتمال
وكنت عذرتكم والقول نزر فما عذري وقد كثر المقال

أو قد يعمد الى استعمال آيات من القرآن الكريم منفردة :

جل الذي أطلع شمس الضحى مشرقة في جنح ليل بهيم
وقدر الخال على خده ذلك تقدير العزيز العليم
بدر" ظننا وجهه جنة فمسنا منعا عذاب ألم

أو الى استعمال مصطلحات الفلاسفة والمناطق وعلماء الكلام منفردة أيضاً :

يا جيرة الحي أجبروا عاشقاً ما حال عن شرع الهوى ودينه
باطنه أحسن من ظاهره وشكه أوضح من يقينه

وهكذا فان مضمون القصيدة الغزلية عند صفى الدين الحلبي يكاد يكون أقرب الى الترهل منه الى الصحة لأن الشاعر فيما يبدو كان ينظم بدون دوافع مفاجرة للشعر الذي تملأ الحياة والحرارة أعطافه ، وإذا كانت هناك دوافع وحوافز ، فانها دوافع تقليدية ، لا تنبع من صميم الذات ، بقدر ما تنبع من جو المناسبة .

هذا من ناحية المضمون في القصيدة الغزلية عند صفى الدين الحلبي ، أما من ناحية الشكل - ونحن هنا نفصل بين المضمون والشكل لتسهيل الدراسة ، واعطائها الصبغة المنظمة - فاننا نستطيع أن ندرسه على الطريقة التالية ، وذلك بأن نقسمه الى شكلين ، شكل خارجي ، وشكل داخلي ، أما الشكل الخارجي فنقصده الحب والغزل ومعانيهما ومقومات وجودهما ، وطريقة تناولهما ، وكيفية ترتيبهما ، وكنا قد وجدنا فيما سبق أن الشاعر يقف على ديار الحبيبة ، فيسلم عليها ويصفها ، ويذكر أيام أنسها ورغدها ، ثم يتطرق الى وصف مجموعة من النساء ، حتى يصل الى ذكر المحبوبة فيتلاشى نفسه عندئذ فيحزن من صدها ويطلب وصلها . ونضيف هنا مقوماً آخر من مقومات هذا الغزل ، هو ذكر الشاعر كثيراً للعدول ، حتى يثبت أنه محسود بعبه ، وأن هناك من يعمل لتمزيق علاقته ، وأن هواه محفوف بالمكدرات ، ويستدر الحزن وتكاد لا تخلو قصيدة غزلية له من ذكر العدول ، بل انه أحياناً يبتدىء مدائحه به ، كما في مقدمة قصيدته التي يمتدح بها الملك الناصر :

اني ليطربني العدول فأنثني فيظن أني عن هواكم أنثني
يا عاذلي ان كنت تجهل ما الهوى فانظر ظباء الترك كيف تركنني

ولا يغيب عن ذهننا ، أن نلاحظ عشق الشاعر للتركيات ، وتحوله عن العربيات ، فهو يطنب في وصف جمالهن وغنجهن ، وشدة تدله بهن ، ولا عجب في ذلك فلقد اندمج العنصر التركي بالعنصر العربي ، اندماجاً قوياً منذ عهود الضعف في الدولة العباسية ، وانفصال السلاجقة ببعض الامارات وحكمهم لها حتى بدء النهضة الحديثة ، وأصبح للمرأة التركية ، مقام رفيع في المجتمع العربي ، لما تتمتع به من حسن وظرف ولعب بأوتار القلوب ، وقدرة على تعاطي الفنون الممتعة المسلية ، كالرقص والموسيقى والغناء :

ظله عيش بالحبيب قضيته فويق قويق والزمان حميد
بظبي من الأتراك في روض حده غدير مياه الحسن فيه ركود

وعشقه أيضاً لمولدات الأتراك اللواتي يخالط دماءهن الأصلية ، دم تركي ، أو مولدي الأتراك من الفلمان :

مولد الترك وكم من كمد مولد من ذلك المولد
معتدل القد عليه لمة فهو بها كالأنف المشدد

والشاعر في حبه يتضاغى ، فهو أحياناً ذليل لمحبوبته ذلة بائسة ، حتى لتكاد تنمحي شخصيته وكرامته وكبرياؤه وهو أحياناً أخرى عزيز عزة رفيعة ، يأبى الخضوع والزحف والتمرغ ، فمن خنوعه وذلتة لحبيبتة قوله :

غيري بجبك سواكم يتمسك وأنا الذي بترابكم أتمسك
أضع الخدود على ممر نعالكم فكأنني بترابها أتبرك

ومن شموخه وأنفته في الحب قوله :

وما أنا ممن يبذل العرض في الهوى وان جدت للمحبوب بالروح والمال
على أنني لا أجعل الذل سُلْماً ترقى به نفسي الي نيل آمالي
وما زلت في عشقي عزيزاً مكرماً أجرء على العشاق بالتيه أذيالي

وأما الشكل الداخلي فنقصده به الأسلوب ، وندرسه من ناحيتين ، الألفاظ والتراكيب ، وقبل أن نفعل ذلك نشير الى أن شاعرنا يملك ديباجة بحترية من ناحية اللفظ ، ذلك لأن ألفاظه رقيقة فصيحة ، سهلة النطق مألوفة على السمع ، واضحة المعنى ، تموج بالوقع الموسيقي ، وتتخللها بعض الشحنات العاطفية ، ولها جوها الذي يكثر فيه الإيحاء ، ومبتذلها قليل نادر ، وغزارتها ملحوظة ، وغريبها ضئيل .

وكل هذه الميزات للألفاظ جعلت التركيب الشعري قوياً متيناً ، أخذاً بعضه برقاب بعض ، فالشاعر يجيد المزاوجة بين الألفاظ ، فيكون لها حلاوة ورنين ، بحيث تحلو في النطق والسمع ، وينتقي التعبير الذي لا تنافر فيه ولا تعقيد ، بحيث يستقر بسهولة في العقل ، غير أنه أحياناً يميل في صياغته الى النثرية ، كقوله :

لقد بعته قلبي بخلوة ساعة فأصبح حقاً ثابتاً من حقوقه

ويخطيء في النحو ، وايراد الكلمة على وجهها الصحيح ، كادخاله الباء على أن في غير موضعها بقوله :

قصدت بأن جعلت العذر عيباً عساه يقيك من عين الكمال
وادخاله (ال) التعريف على (غير) في قوله :
فأصبح لما جرب الغير نادماً كثيف حواشي العيش منخفض الحال

★ ★ ★

من خلال هذه الدراسة المتواضعة لغزليات صفي الدين الحلي نستطيع أن نقول ان غزل شاعرنا لا يرتقي الى منزلة الغزل الذي ينبع من القلب ليصب في القلب ، وانما هو غزل يلوكه اللسان فتستعذبه الأذان .

□ الحواشي :

- ١ - الغزل عند العرب ، تأليف حسان أبو رحاب ، صفحة ٨/ .
- ٢ - انظر في مجلة التراث العربي دمشق العدد رقم (٥) السنة الرابعة دراسة الدكتور عبد الكريم اليافي (الحب في التراث العربي الاسلامي) .
- ٣ - راجع الحب في التراث العربي د. محمد حسن عبد الله سلسلة عالم المعرفة وخاصة الفصل السابع منه وعنوانه (الحب في الدراسات الموسوعية) .
- ٤ - الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية ، للدكتور سامي الدهان ، من سلسلة فنون الادب العربي الجزء الثاني ، صفحة ١٥/ .
- ٥ - تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، تأليف نجيب محمد البهيبيتي صفحة ٤٣٢/ .
- ٦ - ديوان صفي الدين الحلي - دار صادر - بيروت ، بتصرف عن مقدمة كرم البستاني .
- ٧ - الادب العربي في آثار الدارسين ، بحث الدكتور شكري فيصل في (الادب العربي من سقوط بغداد حتى أوائل النهضة) .
صفحة ٣٠١/ .